تفسير ابن كثير

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة ا تعالى وعبادته وحده ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون { قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين } أي كم كانت إقامتكم في الدنيا { قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين } أي الحاسبين { قال إن لبثتم إلا قليلا } أي مدة يسيرة على كل تقدير { لو أنكم كنتم تعلمون } اي لما آثرتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء ولا استحققتم من ا سخطه في تلك المدة اليسيرة فلو أنكم صبرتم على طاعة ا وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا محمد بن يونس حدثنا الوليد حدثنا صفوان عن أيفع بن عبد الكلاعي أنه سمعه يخطب الناس فقال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [إن ا إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم ـ قال ـ لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين مخلدين ثم قال : يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فيقول : بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلدين] .

وقوله تعالى : { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا } أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا وقيل : للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر ا D { وأنكم إلينا لا ترجعون } أي لا تعودون في الدار الاخرة كما قال تعالى : { أيحسب الإنسان أن يترك سدى } يعني هملا وقوله : { فتعالى ا الملك الحق } أي تقدس أن يخلق شيئا عبثا فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك { لا إله إلا هو رب العرش الكريم } فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل كما قال تعالى : { أنبتنا فيها من كل زوج كريم } .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا إسحاق بن سليمان شيخ من أهل العراق أنبأنا شعيب بن صفوان عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد ا وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا ينزل ا فيه للحكم بينكم والفصل بينكم فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه ا من رحمته وحرم جنة عرضها السموات والأرض ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب ا غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه وباع نافدا بباق وقليلا بكثير وخوفا

بأمان ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين وسيكون من بعدكم الباقين حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى ا D قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد قد فارق الأحباب وباشر التراب ووجه الحساب مرتهن بعمله غني عما ترك فقير إلى ما قدم فاتقوا ا قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يحيى بن نصير الخولاني حدثنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي هبيرة عن حسن بن عبد ا أن رجلا مصابا مر به عبد ا بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الاية { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى ا الملك الحق } حتى ختم السورة فبرأ فذكر ذلك لرسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [بماذا قرأت في أذنه ؟ فأخبره فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : والذي نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال] وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال : بعثنا رسول ا صلى ا عليه وسلّم في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون } قال : فقرأناها فغنمنا وسلمنا .

وقال ابن أبي حاتم أيضا : حدثنا إسحاق بن وهب العلاف الواسطي حدثنا أبو المسيب سالم بن سلام حدثنا بكر بن حبيش عن نهشل بن سعيد عن الضحاك بن مزاحم عن عبد ا بن عباس قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة باسم ا الملك الحق وما قدروا ا حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون باسم ا مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم]